

المراسم العاشورية.. التوازن بين الشكلائي والمضموني

الدكتور محمد محمود مرتضى

الكلمات المفتاحية: عاشوراء، المراسم العاشورية، النهضة الحسينية، قراء السيرة، البعد الوجداني، البعد الشكلائي.

في مثل هذه الأيام من كل سنة تكثر الكتابات عن عاشوراء لا سيما حملات النقد الواسعة التي تطل ما يسمى "المراسم العاشورية"، وبعض ما يعترىها من مشهدية إحيائية تتعلق بالتطير وضرب السلاسل وغيرها. ورغم أن هذا النوع من الإحياءات قد تراجع وتقلص إلى حد كبير، مقارنة بالسنوات السابقة، بفعل الفتاوى المتعددة للكثير من المراجع العظام، إلا أن الكتابات حول هذا الموضوع باتت تشكل ظاهرة موسمية لبعض الكتاب، حيث كل واحد منهم يدلي بدلوه فيه.

على أن اللافت في الأمر أن الكتابات النقدية باتت أكثر عددًا من نفس هذه الإحياءات، وأن ما يُظن أنه سعة وانتشار لمثل هذه "التشوهات" ناتج عن "حركية" كبيرة لانتشار مقاطع مصورة لها، هو في الحقيقة انتشار لآلة الإعلامية، أكبر منه انتشار لهذه "الظاهرة".

والواقع أنه لا أحد يمكنه إنكار أن بعض قراء السيرة الحسينية يبالغون في سرد بعض الأحداث غير الواقعية، لكن ما ينبغي الالتفات إليه أيضًا أنّ منتقدي قراء السيرة يبالغون بدورهم في تصوير حجم انتشار هؤلاء، وفي مدى الخطر الذي يمثلونه على مضمون النهضة الحسينية.

ولعل المشكلة الأساس عند بعض القراء تكمن في الخلط بين الوقائع العاشورية وما اجترحه بعض الأدباء في المخيال الشعبي العاشوري، والذي كان يمثل تصويرًا "للسان الحال" لا "واقع الحال".

ومن هنا، فإن اتهام قراء السيرة بتعمد الإضافات فيه إجحاف كبير، واتهام مغلوط بتعمد الإدخال إلى السيرة الحسينية ما ليس منها.

من هذا المنطلق، يبدو أن بعض منتقدي قراء السيرة لا يقلون خطرًا من القراء أنفسهم؛ لأن القارئ "المبالغ" قد يضيف بعدًا خياليًا على الواقعية (الواقعة) العاشورية، والناجحة عن الخلط بين "لسان الحال" وواقعه، فيما بعض المنتقدين يشجعون عامة الناس على "التمادي" في التشكيك في الكثير من الواقع والوقائع، وتاليًا تفرغ عاشوراء من بعدها الوجداني.

على أن الذي لا شك فيه أن التركيز على ضرورة "نكران" البعد الشكلائي للمراسم العاشورائية يعارض الكثير من النصوص المقطوعة الصدور، والتي ركزت على ضرورة الاعتناء بهذا البعد، مع ضرورة التركيز بشكل مواز على البعد المضموني للواقعة العاشورائية.

إن المراسم العاشورائية، شأنها في ذلك شأن معظم التعاليم الدينية، تأخذ بعين الاعتبار البعدين، الشكلائي والمضموني. من هنا، كانت تعاليم النصوص المقدسة تدعو لإظهار الحزن والبكاء والفجيعة والأسى والألم وغير ذلك.

فليس المطلوب في الإحياء العاشورائي تحوُّله إلى حالة من التأمل البوذي، كما ليس المطلوب اقتصار الإحياء على الشكل دون المضمون.

وبكلمة أخرى، ليس المطلوب "عقلنة" عاشوراء على حساب رصيدها الوجداني (الشكلائي)، كما ليس المطلوب حصر عاشوراء ببعدها الشكلائي دون بعدها المعرفي.